الجنادرية همزة وصل حضارية بين الماضي العريق والحاضر المزدهر

الحرس الوطني .. رعاية مثلى وتنفيذ متألق للمهرجان الوطني للتراث والثقافة

إن فكرة المهرجان الوطني للتراث والثقافة تمثل إحياءً وتجسيداً لصورة المجتمع السعودي القديم، بخصائصه وعاداته وتقاليده وأدواته وثقافته.

وحين خطر للمسؤولين في الحرس الوطني أن يولد هذا المهرجان لأول مرة ارتأوا أن يكون همزة وصل حضارية بين الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث الذي كان والمستقبل الذي سيكون.

لم تكن هذه المبادرة حالة استثنائية، وإنما هو انسجام متكامل مع رسالة الحرس الوطني، كمؤسسة حضارية - وهو جزء لا يتجزأ من القوات المسلحة السعودية - يلعب دوره المتميز في إطار التوجيهات السديدة، والسياسة الرشيدة التي وضعت له من قبل القيادة الحكيمة.

فها هو الحرس الوطني حاضر في المشاريع الحضارية، التي تغطي أرض الوطن: مستشفيات ومستوصفات، ومدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية ومدارس لمحو الأمية، ومكتبات زاخرة بالفكر والأدب والثقافة.

المهرجان الوطني للتراث والثقافة جاء وليد رؤية الحرس الوطني، وقد تعمق في شؤون الحياة مدركاً التغيرات الناتجة عن التطور العالمي والانفتاح الحضاري بين الدول مستوعباً أن الهوية الثقافية للأمة العربية العريقة، وقَدّ في حميم الصراع مع الحضارات الأجنبية.

وبعد تفكير وتدبير لمواجهة تلك المتغيرات جاء المهرجان بأهدافه السامية، الرامية للمحافظة على تراثنا الثقافي والاجتماعي، والعمل على تأصيله، وصيانته من الشوائب وكشف الغيوم المظللة التي ظهرت في سمائه، والتأكيد على عظمته.

وما المهرجان الوطني للتراث والثقافة إلا تألق جديد، يضيفه الحرس الوطني إلى سجله الحافل بالمآثر، حيث توسع دور المهرجان ليس على الساحة السعودية فحسب، بل سطعت أنواره عربياً وعالمياً. وليس أدل على ذلك من الأعداد المتعاظمة سنوياً من خيرة الأدباء، ورجالات الثقافة، والفكر، والسياسة، والاقتصاد، وعلماء الدين، الذين يحطون رحالهم على أرض الجنادرية، لإعمال عقولهم، وخبراتهم في الكبير من الموضوعات، والقضايا، التي تهم العرب والمسلمين والإنسانية بشكل عام. إن نظرة واعية لمسيرة الجنادرية الثقافية، وما تناولته ندواتها الثقافية من قضايا، وعناوين بارزة بالبحث، والدراسة، لهي دليل على الدور الكبير، الذي يلعبه الحرس الوطني، من خلال منبر المهرجان في ربط الموروث الوطني، والعربي، والإسلامي بالحاضر، والمستقبل.

جاء ذلك تحت العناوين البارزة، التي تمت مناقشتها، ولا سيما العنوان الكبير، الذي استحوذ على اهتمام الأدباء والمفكرين في العديد من الندوات، وهو ما يتعلق بالموروث الشعبي، وعلاقته وتأثيره في شتى الفنون التعبيرية والفكرية والإبداعية، من شعر، ومسرح، وقصة وغيرها.

ومن زخم المناقشات، وما تمخض عنها من رؤى، وتوصيات، ومقترحات، قدمها المشاركون على مختلف مشاربهم، ودولهم اندفع الحرس الوطني للارتقاء بشكل أعظم في هذا الدور الريادي، فوسع دائرة الدعوات، لتشمل مئات المفكرين العرب والأجانب.

وبذلك غدت الجنادرية، موعد الثقافة المنتظر والمنبر الحر الذي يفضي من خلاله المفكرون، والساسة، والعلماء بوجهات نظرهم، وعصارة أفكارهم، وطروحاتهم على تعدد رؤاهم وانتماءاتهم الفكرية.

ومن خلال النجاح الباهر الذي حازت عليه الندوات الثقافية، بما تناولته من موضوعات حيوية واهتماماً بالتغيرات العالمية، سياسياً، واقتصادياً، وأيديولوجياً، التفت الحرس الوطني إلى ضرورة توظيف المهرجان الوطني للتراث والثقافة لدور جديد، يتمثل بمناقشة، ودراسة القضايا العربية والإسلامية، بتوسع أكبر، لتصحيح الصورة المشوهة عن العرب والمسلمين، والتي رسمتها أبواق الدعاية الغربية والصهيونية في أذهان الشعوب.

وبالفعل فقد دعا الحرس الوطني العديد من المفكرين الأجانب، ولا سيما أصحاب النظريات، التي لها مساس بهذا الجانب المهم إلى ساحة الحوار الموضوعي الحر لتعديل التصورات، والأفكار المغلوطة، فها هو البروفيسور صامويل هانتغتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» يحل ضيفاً على المهرجان، ويلتقي المفكرين العرب والمسلمين، مشاركاً في حواراتهم حول العديد من قضايا الأمة العربية والإسلامية، وتفاعلها المنفتح مع الحضارات الأخرى، ليعود بعد ذلك إلى وطنه، فيغير من أفكاره وآرائه ليستبدل نظريته تلك بـ «حوار الحضارات».

إضافة إلى ذلك استطاع الحرس الوطني بجهوده المعطاءة في رعاية وإدارة المهرجان الوطني للتراث والثقافة، أن يصحح الكثير من التصورات لدى المثقفين والأدباء العرب - على اختلاف انتماءاتهم الأيديولوجية - عن المملكة باعتبارها مجتمعاً رجعياً متخلفاً، كما نادى بذلك «قاموس أصداء الحرب الباردة في المنطقة»، فقد وجد هؤلاء الصورة على الواقع الملموس مغايرة لما كان يرتسم في أذهانهم، لتصبح الجنادرية وسيلة لاكتشاف المتغيرات المادية والثقافية الجديدة في المملكة في كل مجالات الحياة من خلال المشاركات المتنوعة للمؤسسات الحكومية والخاصة، والجامعات والمدارس، والهيئات من جميع مناطق المملكة، مع تركيز خاص في فعاليات المهرجان على القرية التراثية، وما تحفل به ساحة المهرجان من عروض تراثية، ومعارض فنية، وأمسيات شعرية، وفنون شعبية.

وخلاصة القول، لقد استطاع الحرس الوطني، وفي فترة قصيرة من عمر الجنادرية أن يحرز قصب السبق، بما وصل إليه من نجاح في هذا المهرجان الذي تميز على أمثاله من المهرجانات في الدول العربية الأخرى بالبعد عن «التسييس» و «الخطابية» و «الإعلام الرسمي»، ليغدو منبراً حراً لمنتجي الثقافة، والأدب، والفن، وساحة لإعادة عرض المأثورات الشعبية.

ساحة الحدث

«الجنادرية»: هي تلك الروضة الواقعة إلى الشمال الشرقي لمدينة الرياض، مصب الأودية ومسيلات مائية عدة.

كان اسمها قديماً «روضة سويس»، وقد مر ذكرها في آثار العديد من المؤرخين والمؤلفين الذين رصدوا آثار اليمامة.

وهي أرض حفلت بـ «النقل، والحنوة، والكرش، والحرب، والحوذان» من النباتات الرعوية فصارت مهوىً لقلوب أبناء الرياض للتنزه والاستجمام عندما يفتح الربيع أوائل وردكن بالأمس نوماً، ومرتعاً للشعراء الذين تغنوا بها في أشعارهم. وإذا أردنا «الجنادرية» لغة يمكننا القول: جندر الكتاب: أمر القلم على ما درس منه، وجندر الثوب: أعاد له رونقه بعد تلاشيه.

فالجنادرية إذاً لوحة رسمت بالقلم والكتاب والمعرفة والثقافة والفن والجمال.

سباق الهجن

تقاطر الرجال يمتطون ظهور جمالهم. فالجمل العربي لم يكن وسيلة الحل والترحال عبر الفيافي والقفار فقط بل وحده الذي تحمل قسوة الصحراء وشظف الحياة مع ابن الأرض، فنشأت بينهما ألفة ومودة وكفاح وجود.. وتحول من مجرد سفينة صحراء إلى رمز قوة وصبر وانطلاق وأصالة، مما حدا بالإنسان العربي إلى مخاطبته شعراً فصيحاً ونبطياً، مشيداً بقوته، مفضياً له بهمومه وأشجانه.

لقد تردد ذكر الإبل في آيات كثيرة في القرآن الكريم، يفصل فيها الله سبحانه وتعالى علاقة الإنسان العربي بالإبل التي سخرها له جل وعلا، وما تحققه هذه العلاقة من منافع وفوائد للإنسان مما جعل الإبل محوراً وركيزة في معظم أحوال حياته، فيقول الله تعالى في سورة النحل : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكن فيها جَمَال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾. «سورة النحل الآيات ٥ و ٦ و ٧». كما يقول تعالى في آية أخرى: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾. «النحل آية ٨٠».

وعلى الرغم من التطور الحضاري والتقدم الذي أفاء الله به على البلاد وأهلها، والذي قلص دور الجمل في حركة الحياة، فقد حافظ إنسان الجزيرة العربية على الجمل رمزاً تراثياً حاضراً تتناقله الأجيال.

ومن هذا الوفاء جاءت فكرة سباق الهجن تجسيداً حقيقياً لرغبة قادة هذه البلاد في تنشئة الأبناء على خطا الآباء والأجداد وفاء ومغامرة، وشجاعة، وتنافساً شريفاً، وشحذاً للهمم لبلوغ الأفضل، ففي عهد جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز - رحمه الله - انطلقت فكرة الاهتمام بالإبل كرمز من رموز الماضي لا يمكن محوه أو طمسه، أو نسيانه، وعلى هذا كان الاتجاه إلى تنظيم سباق الهجن السنوي الذي انطلق يتطور ويتجدد عاماً بعد عام، ففي كل عام من أعوام الجنادرية، تتألق الهجن العربية الأصيلة، كعرائس البحر، في مسارات الجنادرية، جيئة وذهاباً، ترسم لوحة الشموخ، والتوهج، والأنفة، والكبرياء، يمتطي صهواتها شباب، ورجال من أبناء هذه الأرض، التي تعبق بأريج البطولة، والشجاعة.

ومثلما هي الجنادرية متجددة، ومتطورة في كل عام، كذلك هو سباق الهجن، يوازيها في التجدد والتألق، والتطور حيث تضيف العقول المتفتحة لمنظمي هذا الكرنفال السنوي، رؤىً جديدة وسباقات مستحدثة، تشبع رغبات المنطلق المتوثب نحو الأفضل.

ولقد شهدت الأعوام المتتالية لهذا السباق الرياضي التراثي أشكالاً جديدة في السباقات، وزيادة في عدد الهجن المشاركة، وتقسيماً لفئاتها، وزيادة في عدد الأشواط، ومسافاتها، مما استدعى الزيادة في الجوائز المقدمة.

عناصر التراث في الجنادرية

تراث الشعب هو تلك الجوانب المغرقة في القدم من حياة الآباء والأجداد، والتي تتبدى حاضرة في وجدان الأبناء وذاكرتهم، وهو ثقافة الأمس بمعناها الشامل لطرائق التفكير، وأساليب التعبير، وإبداعات العمل والسلوك في أنماط الحياة المختلفة.

إن التقدم الحضاري لا ينقطع عن تراث شعب من الشعوب مهما بلغت درجة تطوره، بل يسري في دم الأجيال نبضاً خالداً وينتقل إلى عوالم جديدة.

ومن منطلق الحفاظ على التراث وعدم التنكر له، ليبقى سمة دائمة من سمات الشعوب الحية الجديرة بالبقاء، تأتي المهرجانات التراثية لتنسج من عناصر التراث وإبداعات الماضي لوحة فنية راقية، تقدمها لأجيال اليوم والغد. وهذا ما حدا بالجنادرية كمهرجان وطني للتراث والثقافة، أن تصور ذلك كله عبر لوحة كرنفالية موشاة بجماليات الوطن، ماضيه، وحاضره.

يشكل التراث الشعبي العربي المجد التليد، الملموس الباقي للأمة العربية الذي لم يغيره تقادم السنين، ولم تقده فأس الزمان، على مر الأيام، رغم الحضارة والتطور، فبقي صورة جميلة في الذاكرة والوجدان، ونزهة للعيون، وعبرة للعقول، وإنعاشاً للقلوب، التي تشتاق إلى رائحة الماضي الغابر الذي عاشه الآباء والأجداد رغم الإمكانات التي كانت بين أيديهم.

توثيق التراث:

تبنى المسؤولون في الحرس الوطني فكرة إنشاء وحدة لتوثيق التراث في المهرجان. وكانت هذه الوحدة النواة الأولى لفكرة توثيق التراث، والموروث الشعبي في المملكة العربية السعودية، وتعنى برصد جميع أنشطة المهرجان الفكرية، والمادية، من حرف يدوية، وفنون شعبية، وشعر شعبي والقيام بدراسات علمية ميدانية عن كل حرفة من الحرف اليدوية، وكل فرقة من الفرق الفنية، وكل شاعر من الشعراء الشعبيين، المشاركين في فعاليات المهرجان، واستحداث ملفات وثائقية علمية لكل ذلك، وبالتالي إصدار الكتب العلمية المتخصصة في هذا المجال.

وتعد لجنة التراث الشعبي في كل عام برنامجاً متكاملاً لنشاط التراث داخل السوق الشعبي، وتشارك فيه العديد من القطاعات الحكومية، والهيئات التعليمية وغيرها.

فبالإضافة إلى أنشطة الحرف اليدوية التي تعرض، وتجسد داخل الدكاكين المحيطة بساحة السوق، هناك العديد من الأنشطة التي يتم تقديمها، مثل مدرسة الكتاتيب والختمة، والألعاب الشعبية لمختلف مناطق المملكة، وتقديم القهوة العربية، وعزف الربابة داخل بيت الشعر، وعروض لبعض أنماط الحياة الفطرية في المملكة، واستعراض الخيول والجمال التي باستطاعة الجمهور ركوبها، وتمثيل لبعض العادات القديمة في مختلف مناطق المملكة، مثل زفة العروس، وعرض وتمثيل «بانورامي» للحياة البحرية في سواحل المملكة، وما يصاحبها من صيد وأهازيج بحرية قديمة، وتقديم المأكولات الشعبية.

القرية التراثية:

لقد حرصت إدارة المهرجان، منذ دورته الأولى، على أن تكون جوانب الحياة الذاتية متمثلة في جنبات المهرجان، وذلك بناءً على توجيهات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله ببناء قرية للتراث، تتجسد فيها أساليب حياة الأجداد وتراثهم.

وبمشاركة مناطق المملكة المختلفة، غدت القرية التراثية نموذجاً حياً، يحكي صورة الحياة الطبيعية، التي كان يعيشها أبناء هذه المناطق معتمدين على الله أولاً، ثم على إبداعاتهم، وتأقلمهم مع البيئة والطبيعة.

إن زائر القرية الشعبية، ودون عناء يشعر وكأنه يمتطي صهوة بساط الريح، ليرى مناطق المملكة كاملة بأم عينه كيف ذلك؟

لقد وفرت له هذه القرية متعة المشاهدة، وفرحة التعرف على تراث أهله في كل منطقة من خلال البيت الشعبي، الذي كان قائماً في تلك المنطقة، والمبني من الطين والقش، أو من الحجارة المقتطعة من الصخور بشكل إبداعي متقن، يعكس الذوق الفني عند أبناء هذا الوطن.

وداخل البيت الشعبي يطلع الزائر على موجوداته الحياتية، وأدوات، ووسائل المعيشة، بأشكالها وتسمياتها الحقيقية، إضافة إلى ملحقات هذا البيت، التي تعكس نشاطات ساكنيه الحياتية المختلفة.

وتوشي لوحة البيت الشعبي منتجات اليد المبدعة، المتمثلة بالأزياء والألبسة الشعبية، التي كانت سائدة في ذلك الماضي التليد.

وفي ركن آخر من القرية التراثية، وتذكيراً بمآكل، ومشارب الآباء والأجداد، تقدم الجنادرية لزائريها، وبشكل حي وفعلي، نماذج مختلفة من الأكلات الشعبية، بمكوناتها الطبيعية، وطريقة إعدادها وتحضيرها، والتي تلاقي إعجاباً ومتعة متذوقيها.

السوق الشعبي:

أما السوق الشعبي، فيرجع بزائر الجنادرية إلى زمن غاب عنا، وبقيت آثاره ورائحته العبقة، وهو السوق الموجود في غالبية مدن المملكة القديمة، والذي لا يزال قائماً بدكاكينه، ومصابيحه وطرازه الشعبي في بعض منها.

كان يبنى من مزيج الطين، والأثل، والجريد في منطقة نجد وشمال الجزيرة وشرقيها، وجنوبيها. أما في منطقة الحجاز وتهامة فكان يبنى من الحجر، لتوفر الأحجار فيها، بينما في مناطق عسير، التي يطلق عليها جنوب الحجاز، فكان السوق ذا طابع خاص، تغلب عليه تلك الحجارة الرقيقة، التي تحيط بالبناء لحمايته من الأمطار، إلا أن منطقة نجران تشارك منطقة نجد في طرازها المعماري، وأسواقها القديمة.

يقع السوق، بشكله الدائري، غالباً في وسط البلدة، وتنتشر الدكاكين في أنحائه، وتعرض فيها السلع المختلفة، وتتوقف في ساحته الإبل والأغنام مشكلة سوق الحراج. وعلى مقربة منه بئر عليها محالة ودلو وحوض للوضوء من أجل الصلاة، ومسقى للدواب.

وضيف الجنادرية يلج عالماً ساحراً، حين ينتقل عبر شوارع السوق العديدة مسرحاً ناظريه في موجوداته، فيشد انتباهه مجموعة من الجمال المحملة بهوادجها والمطورة بزينتها التقليدية، وهي تدخل إلى ساحة السوق، مشكلة عرضاً تراثياً جميلاً، يستحوذ على إعجاب الناظرين. لينتقل بعد ذلك إلى الدكاكين التي تختص كل طائفة منها بعرض سلعة من السلع، أو مادة من المواد، أو صناعة من الصناعات التقليدية فيقف على إبداعات الأيدي التي تحيك وتحفر، وتفتل، وتنحت.

الجنادرية وقضايا العرب والمسلمين

وتمضي السنون، وتمر الأيام، ويتجدد المهرجان الوطني للتراث والثقافة، عاماً بعد عام .. وتحمل الجنادرية مسؤولية كبرى على عاتقها، تتمثل في التصدي لبحث الموضوعات الكبرى، الموازية لحجم التطور العالمي، بمناحيه المختلفة، ولا سيما ما يواجه مصير الأمة العربية والإسلامية من تحديات مختلفة.

وبعد أن أعطى المهرجان الوطني للتراث والثقافة في ندواته الكبرى المتعاقبة موضوع الموروث الشعبي وعلاقته بالإبداع الفكري والفني في العالم العربي، حقه من البحث، والاستقصاء، والدراسة، اتجهت الجنادرية، ومن خلال دورها الريادي إلى مناقشة الواقع العربي عموماً، وأبرز القضايا الإسلامية التي تنعكس أسبابها ونتائجها، بصورة أو بأخرى، على واقع العرب والمسلمين، ومستقبلهم، الاجتماعي والحضاري.

لقد توقفت التحركات العسكرية والاستعمارية، بشكلها التقليدي القديم، لتعود إلى مواجهة الشعوب والدول بلبوس جديد وأساليب جديدة، سواء منها الاستعمار الاقتصادي، أم الغزو الثقافي والفكري، أم الشكل الإعلامي للاستعمار الجديد، الذي يسيطر على وسائل الاتصال، والأقنية الإعلامية المختلفة، أو بأشكال، وأساليب أخرى.

ولقد ألقت هذه التطورات بظلالها على العرب والمسلمين، بشكل أو بآخر، في شتى المجالات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، ولا سيما بعد أن تحول العالم إلى نظام القطبية الواحدة.

وفي جملة الأحداث المتسارعة على الساحة الدولية، برزت مقولة «الخطر الإسلامي القادم»، هذه المقولة التي أطلقها الإعلام الغربي مدفوعاً، ومحركاً من قبل أعداء العرب والمسلمين، بصور مشوهة، تثير رجل الشارع الغربي، وتملؤه حقداً على الإسلام من خلال الصورة التي عممتها أبواق الدعاية الإعلامية الغربية والصهيونية، حيث ظهرت في هذه الوسائل صفات صبغت المسلم والعربي بصبغة الإرهاب، والهمجية، والتخلف.

إنه الظلم والتجني على الإسلام، دين المحبة والإنسانية، دين التسامح، والتعايش، والحضارة، الذي وصل أصقاع الدنيا بالحكمة والموعظة الحسنة، حاملاً مشاعل النور والهداية، التي نقلت الإنسان، محور الحياة وأساسها، من عهود الظلام، والتخلف، والجمود، إلى عهود التنوير، والازدهار، وبناء الحضارة الإنسانية. هذا الدين يواجهه الأعداء اليوم بالجحود والنكران، بالحقد والتعسف والظلم، المتمثل بإطلاقهم بذور الشر لنشرها في وجه الصحوة الإسلامية المتعاظمة في كل أرجاء الدنيا.

وبنفس العمق الذي تناولت به الجنادرية موضوع التراث، تتجه إلى دراسة، ومناقشة القضايا العربية والإسلامية، التي توضح من خلالها الصورة الحقيقية للعرب كأمة، وللإسلام كمنهج حياتي سليم، ولهذا وضعت لنفسها استراتيجية منهجية، من خلال الموضوعات التي تتناولها في هذا المجال، وتدعو للمشاركة بالبحث والمناقشة رواد الفكر والدين والثقافة والأدب من عرب وأجانب.

وكان المنطلق إيضاح «مفهوم الشورى في الإسلام»، هذا المبدأ، الذي أودعه الله في قرآنه العظيم دليل عمل حياتي لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ليكون دستور حياة الإنسانية وضالتها المنشودة.

إنها الرسالة السماوية السمحة، التي كلف الله بإبلاغها للناس أجمعين خير الخلق، وصفوة البارىء محمد صلى الله عليه وسلم.. هذا الدين الحق بشريعته، وعقيدته، ومفاهيمه، ونظامه الحياتي.

إنه دين الحياة، بكل ماتعني الحياة، الدين الذي يصون كرامة الإنسان، الإنسان الذي كرمه الله جل وعلا، حيث قال عز من قائل: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ الإسراء - آية ٧٠، و ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ التين - آية ٤.

واحتراماً لهذا الإنسان، ولدوره في بناء الحياة، جاء مبدأ الشورى في أدبيات هذا الدين الحنيف، ليكون على أساس إيماني، نهجاً وسلوكاً، تربية وبناءً، تدريباً وإعداداً في مختلف ميادين الحياة. والتاريخ الإسلامي حافل بالصور المشرقة والعملية لمبدأ الشورى، إن كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو في عهود أصحابه.

وتجربة مبدأ الشورى في المملكة العربية السعودية ليست جديدة، فإن الدولة دولة فكر، وعقيدة، ودعوة، تقوم على الإسلام، والشورى فيها من دعائم العمل بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولقد اعتمد هذا النظام، منذ البدايات، مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في جميع مؤسسات الدولة، وأكمل المشوار أولاده البررة.

إن مبدأ الشورى في الإسلام، الذي سميت سورة من سور القرآن باسمه «الشورى»، هو قائم منذ أربعة عشر قرناً ونيف، ولا يقتصر على مهام الدول سلماً، أو حرباً، أو بناءً، أو اقتصادياً، أو فكراً، أو توجيهاً، أو علاقة فردية، أو جماعية، أو دولية، بل هو المبدأ الذي يسود في أوضاع الأسرة، وشؤون رعاية الطفل، وما يتصل بالعلاقات الزوجية.

ويكفي هذا المبدأ أنه الأسبق، والأشمل من كل ما يسمى بالديمقراطية، أو غيرها من المصطلحات الوضعية.

وتمضي الجنادرية في تألقها الثقافي، ويتابع المفكرون والأدباء، والكتاب العرب والأجانب أبحاثهم، وحواراتهم بوعي، وتفتح، وموضوعية. وهنا نحن مع مبدأ آخر من مبادئ الإسلام، ألا وهو أدب الحوار في الإسلام، فالحمد لله القائل في محكم التنزيل : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ «إبراهيم الآيتان ٢٥، ٢٦». والكلمة الطيبة صدقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن باب التوضيح نقول: إن الحوار والجدال كلمتان نواتا دلالة واحدة، حيث اجتمع اللفظان في قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ المجادلة الآية ١.

فالحوار هو المناقشة بين الطرفين، أو أطراف بقصد تصحيح كلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، ورد الفاسد من القول والرأي. وهذه غاية الحوار الذي غالباً ما يكون في الأمور المختلف فيها.

وللحوار أصول لابد من اعتمادها، وهي سلوك الطرق العلمية في الحوار والتزامها، وصحة النقل في الأمور المنقولة. يقول الله تعالى: ﴿.... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ «البقرة آية ١١١».

كما أنه لابد أن لا يكون الدليل عين الدعوة، أي لا يؤتى بألفاظ منمقة على أنها دليل.

ولابد للحوار من الاتفاق على منطلقات ثابتة، وقضايا مسلمة لا يجوز الخوض فيها. كالربوبية، والأسماء، والصفات، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم والحكم بما أنزل الله، وتعدد الزوجات، وقضية الربا، والزنا، فهذه المسلمات لا نقاش فيها.

ومن أصول الحوار التجرد، وقصد الحق، والبعد عن التعصب والالتزام بأدب الحوار، ولابد من أهلية المحاضر والمحاور، أهلية علمية ومعرفية، إضافة إلى قطعية النتائج ونسبتها في الحوار، والرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجاد بها، وبما يترتب عليها.

ومن هذا يتضح أن آداب الحوار في الإسلام هي التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإقحام، وألا يفترض المحاور في صاحبه الذكاء المفرط، أو الغباء والسذاجة. كما أنه يجب الالتزام بوقت محدد في الكلام. فيكون الكلام مناوبة لا مناهبة وعلى المحاور حسن الإنصات والاستماع والمتابعة وتقدير الخصم، واحترامه وحصر المناظرات في مكان محدود، ومن أبرز آداب الحوار الإخلاص. إنه الإسلام الذي احتوى كل ما فيه نفع الإنسان عموماً في الدين والدنيا والآخرة.

ويرتقي منظمو الجنادرية برؤاهم الثقافية من المحلي إلى العربي فالإسلامي والعالمي من القضايا التي تهم العرب والمسلمين والتي أصبحت من المفاصل الأساسية للنشاط الثقافي السنوي للجنادرية.

وموضوع برامج الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الأمريكية - الواقع والتطلعات - هو أحد المحاور التي طرحتها الجنادرية على بساط البحث، إذ شكلت الدراسات الإسلامية الاهتمام الأبرز للأمريكيين بعد تسلمهم تركة الأوروبيين في قيادة العالم عسكرياً وسياسياً وأكاديمياً، والذي سمي بالاستشراق حيث تركز في أوروبا في محورين رئيسيين ورثتهما الدوائر الأكاديمية والرسمية في الولايات المتحدة: أولهما (التراكم المعرفي)، وهو ما تمخض عن جهود طلاب العلم الأوروبيين، الذين تعلموا في الشرق على أيدي العلماء المسلمين والعرب، وما كان ثمرة جهود الموظفين العسكريين، والمدنيين، الذين أوفدتهم الدول الأوروبية لإدارة مستعمراتها في الشرق العربي المسلم، وغيره من البلاد التي استعمرتها.

أما المحور الثاني فهو (تأسيس المساقات الفكرية وتأصيل المصطلح العلمي) - وهو الأخطر، والأبعد أثراً في جمع المعلومات، وتثبيتها.

بعد هذا فإن الدراسات الإسلامية في الولايات المتحدة تشمل مراحل التعليم كافة، وتمنح الشهادات العلمية، انتهاءً بالدكتوراة بالعديد من المعلومات، سواء العربية ولهجاتها، أو الدراسات الإسلامية، كالفقه والشريعة، والقانون وغيرها من الدراسات الإسلامية. ويدعم ذلك ما تحتويه تلك الجامعات من مكتبات ثرية جداً، مثل مكتبة «الكونغرس» الأمريكي، ومكتبة جامعة «بريستون»، ومكتبة «بيل وهارفارد». وقد دفعت هذه الدراسات بالعرب والمسلمين الموجودين في تلك البلاد إلى الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية، لأنها صلتهم بأوطانهم، والعمل على صيانتها من الدس والتشويه من خلال افتتاح العديد من المراكز الإسلامية والعلمية والمعاهد المتخصصة للجاليات هناك.

وحرصاً من القائمين على المهرجان الوطني للتراث والثقافة، على إيضاح الصورة الحقيقية للإسلام والعرب، وإعطاء شعوب العالم صدق القول، ونصاعة الصورة، ونقاء الفكر العربي والإسلامي، كانت الانطلاقة الثقافية، والفكرية الكبرى علماً خفاقاً، ووهجاً ساطعاً من على منبر الجنادرية، يهاتف علماء الغرب ومفكريه، ويدعوهم للمشاركة والحوار والوقوف على الصورة الحقيقية للعرب والمسلمين ليأخذوها عن كثب وليروها بأم أعينهم.

ولقد ترجم ذلك عملياً فيما يبحثه المشاركون في ندوات الجنادرية التي حملت العنوان الكبير الذي تداعى لمناقشته رجال الفكر والثقافة والأدب والتراث العربي، هو «العرب في مواجهة التحديات - الصراع الحضاري والأيديولوجي».

وتحت هذا العنوان تندرج عناوين أساسية، تتناول التحديات التي تواجهها أمتنا في مجال الثقافة والإعلام، التربية والتعليم، السياسة والاقتصاد.

«التحدي الحضاري والأيديولوجي» موضوع تناوله الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، نرى فيه أن هذا التحدي يعتبر من أبرز موضوعات الساعة، ولدرجة أهميته انبرى له المؤرخون والمفكرون والمستشارون السياسيون وصناع القرار في بلاد المشرق والمغرب، كما ألفت فيه الكتب والدراسات تحت عناوين عدة، منها «صدام الحضارات» لصموئيل هانفتون، و «حوار الحضارات» لروجيه غارودي. ومن الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث والدراسة تورجوف، وإدوارد سعيد، وبرنارد لويس، وفوكوياما، وكينيدي، ونيكسون، ومنير شفيق، وغيرهم.

لقد انتهت الحرب الباردة بين المعسكرين، الاشتراكي والرأسمالي، وأصبح العالم الآن هو دولة القطب الواحد، ودولة الأمم المتحدة، التي يهيمن عليها القطب الواحد الباقي، والتنافس التقليدي عاد من جديد بين الدول القومية التي كانت تسعى لتكون قطباً واحداً، وانهار جدار برلين، وبانهياره التقى الشرق بالغرب، واتجهت دول المعسكر الاشتراكي، إما لتبني الديمقراطية الغربية، الذي يشكل التوجه الرأسمالي أيديولوجيتها الجوهرية، عن طريق التعددية، والاقتصاد الحر، وإشاعة الملكية الفردية، ومنح الحقوق الشخصية، وإما إلى إحياء النزعات الدينية، التي كانت تعتبرها عدوها اللدود.

كما ظهرت العودة إلى المسيحية الأرثوذكسية في شرق أوروبا وفي روسيا، والعودة إلى الإسلام في دول الاتحاد السوفييتي المستقلة. وما الحرب بين أذربيجان وأرمينيا، وبين روسيا والشيشان، وبين دول يوغسلافيا السابقة، إلا دليل على النزاعات الشديدة لإحياء الدين، والعودة إلى المذهبية الدينية.

هذه العوامل مجتمعة جعلت المفكرين، وصناع القرار السياسي والعسكري في العالم يراجعون مواقفهم، وأفكارهم، واستراتيجيتهم ويدركون أن الصراع الحقيقي في العالم ليس اقتصادياً، أو قومياً، بل هو صراع حضاري، طفا على السطح ودعا إلى إعادة النظر في التقسيم السابق للعالم، وبرزت مصطلحات جديدة وفق الصراع الجديد، كمصطلح التحدي، والصراع الحضاري الأيديولوجي. إن هذا الصراع ليس وليد اليوم، على الرغم من أنه في يومنا هذا، يتمثل الصراع الثقافي، ذلك أن الغرب حسم الصراع العسكري والاقتصادي لصالحه، والصراع الثقافي هو الصراع الحقيقي الذي يحدد هويتنا ويشكل خصوصيتنا.